القاهرة فى ثورة

١٨٠١ - ١٨٠٥

أ. د. على بركات

أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة حلوان

القاهرة فى ثورة
١٨٠١ - ١٨٠٥

قبل قرنين من الزمن تقريباً عاشت القاهرة فى ثورة "فترة" تزيد عن ثلاثة شهور جرى خلالها عزل الوالى خورشيد وتولية محمد على فى اجتماع حاشد عقد فى ١٣ مايو عام ١٨٠٥، وما لبث أن استجاب السلطان العثمانى لإرادة الرعية والعلماء فى تعيين محمد على والياً على مصر وعزل خورشيد من الولاية الأمر الذى أعلن فى القاهرة فى ٩ يوليو ثم أرغم خورشيد بعدها على مغادرة القلعة فى ٦ أغسطس بعد فترة حصار بدأت فى ١٩ مايو وكان ذلك تتويجاً لأربع سنوات من الصراع رفضت خلالها جماهير الشعب المصرى وفى قيادتها العلماء وكبار التجار العودة بالأوضاع فى مصر إلى ما كنت عليه قبل الغزو الفرنسى (١٧٩٨- ١٨٠١).

وفى هذه الدارسة محاولة لإلقاء الضوء على هذه الفترة من تاريخ مصر التى شهدت أيضاً أول مظاهرة عامة لنساء مصر فى ٨ مارس ١٨٠٤ ضد حكومة المماليك بزعامة البرديسى فقد أعقب خروج الفرنسيين من مصر عام ١٨٠١ فترة من القلق والصراع على السلطة استمرت إلى ما بعد تولية محمد على عام ١٨٠٥ وهى فترة يطلق عليها بعض المؤرخين فترة الفوضى[١] السياسية وهى فترة لا تقل فى قسوتها عن فترة الغزو الفرنسى التى سبقتها والتى شهدت مقاومة شرسة لقوات الاحتلال من قبل الشعب المصرى فى الريف والمدينة كان أبرزها ثورة القاهرة الثانية التى استمرت أكثر من شهر.

وقد تركز الصراع على السلطة خلال فترة الفوضى السياسية بين القوى التى كانت تشكل النظام السابق على الغزو الفرنسى وهم العثمانيون والمماليك. فالعثمانيون الذين كانوا أصحاب السيادة على مصر وشاركوا فى طرد الفرنسيين منها كانوا يريدون إعادة سيادتهم كاملة على مصر بعد التخلص من المماليك كعنصر مناوئ معتمدين فى ذلك على قوتهم التى شاركت فى طرد الفرنسيين

وتبلغ حوالى ٣٠ ألف جندى.

أما المماليك الذين كانوا يحكمون مصر من الناحية الفعلية قبل الحملة الفرنسية فكانوا يطمحون فى العودة لحكم مصر على الرغم من أن قوتهم قد خضعت خلال معاركهم مع الحملة الفرنسية يعضدهم فى ذلك البريطانيون الذين شاركوا فى طرد الفرنسيين.

وقد اصطدمت تطلعات المماليك هذه بأهداف العثمانيين الرامية إلى تعزيز قبضتهم على مصر والتخلص نهائيا من المماليك.

وكان الإنجليز الذين شاركوا فى طرد الفرنسيين من مصر بقوة تصل إلى ٢٠ ألف جندى استمرت فى مصر حتى عام ١٨٠٢ كانوا بدورهم يرغبون أن يكون لهم دور فى تحديد مستقبل الحكم فى مصر. وكان الإنجليز يرون أن المماليك وحدهم هم القادرون على حكم مصر والدفاع عنها فى مواجهة أطماع الفرنسيين التى لم تكن قد انتهت بعد.

وقد استمالوا جناحاً من المماليك إلى جانبهم بزعامة الألفى[٢] وعلى ذلك فقد نشطت السياسة البريطانية خلال تلك الفترة من أجل الوصول إلى اتفاق بين الباب العالى والمماليك. لكن العثمانيين كانوا مصممين على التخلص من المماليك وبذلك فشلت الجهود البريطانية فى هذا الاتجاه.

أما الفرنسيون الذين أرغموا على الجلاء من مصر فكانوا يرغبون فى العودة إليها خصوصاً وأن الصراع ضد البريطانيين لم يكن قد حسم فى أوربا بشكل كامل وبدورهم استمال الفرنسيون جناحاً آخر من المماليك بقيادة البرديسى.

غير أن أياً من المماليك أو العثمانيين لم يكن فى استطاعتهم العودة بالأوضاع فى مصر إلى ما كانت عليه قبل الغزو الفرنسى وذلك لسببين:-

الأول: الدور المتزايد الذى أخذت تلعبه جماهير القاهرة بقيادة الأعيان المحليين من العلماء والتجار فى الحياة العامة مع نهاية القرن الثامن عشر

وخلال الحملة الفرنسية. ثم الفترة التى تلتها[٣].

الثانى: أن الحملة الفرنسية قد هزت الكثير من المفاهيم التى خضع لها الشعب المصرى سنين طويلة حول قوة العثمانيين ومعهم المماليك وشرعية حكمهم[٤]. وبالتالى بات من الممكن، الثورة على ذلك الحكم وتغييره. والنتيجة أن أيا من عناصر النظام القديم من العثمانيين والمماليك لم يكن فى إمكانهم العودة بالأوضاع فى مصر إلى ما كانت عليه قبل الغزو الفرنسى. وهو ما أكدته أحداث الفترة التى تلت خروج الفرنسيين من مصر، والتى شهدت تناقضات جديدة فى علاقة الحكم بجماهير المدينة. ففى ظروف الأزمة الاقتصادية الطاحنة التى خلفها الغزو الفرنسى: طالبت السلطات العثمانية العائدة الفلاحين بضرائب الأرض عن فترة الحكم الفرنسى[٥]. وكان الفلاحون قد دفعوها للسلطات الفرنسية وفى بعض المناطق كما هو الحال فى صعيد مصر دفعت الضرائب مرتين مرة للفرنسيين ومرة للمماليك الذين فروا إلى الصعيد عقب الغزو الفرنسى. وفيما يتعلق بعقارات المدن طالب الوالى العثمانى خسرو - أول الولاة بعد جلاء الفرنسيين - ملاك تلك العقارات بما يعادل إيجار ثلاث سنوات، الأمر الذى أضاف أعباء جديدة على السكان.

وإلى جانب العامل الاقتصادي فقد نتجت الأزمة التى فجرت ثورات القاهرة من وجود آلاف الجند الذين لا يحصلون على رواتبهم بشكل منتظم، وبالتالى أصبحوا مصدر قلق متواصل لسكان القاهرة والولاة فى نفس الوقت عندما كانت تتأخر رواتبهم فكانوا يهاجمون السكان وينبهون البيوت ويغتصبون النساء ويشيعون الفوضى فى القاهرة. لقد كانت مسألة دفع مرتبات الجند المتأخرة هى العامل الرئيس فى طرد خسرو من القاهرة وفى مقتل طاهر باشا. ويقرر محمد فؤاد شكرى أن أزمة دفع مرتبات الجند كانت الصخرة التى تحطمت عليها حكومة البرديسى (مارس ١٨٠٤)[٦].

وكانت أزمة الجند هى السبب المباشر فى ثورة القاهرة عام ١٨٠٥ عندما

استقدم خورشيد قوات جديدة من الدلاة فى أوائل عام ١٨٠٥؛ ليوازن بهم قوات محمد على. وقد أحدث وجود تلك القوات حالة من الفوضى لم تعرفها القاهرة من قبل. الأمر الذى بدا معه النظام الاجتماعى القائم فى ذلك الوقت مهدداً بالانهيار.

لقد بدأت أزمة الحكم تتفاقم ابتداءاً من عام ١٨٠٣ عندما أرغم الجند الألبان ـ الذين كان من بينهم محمد على ضابط فى تلك الفرقة ـ خسرو على الفرار من القاهرة ثم قتل طاهر باشا الذى خلفه فى نفس العام وخلال مطاردة خسرو الذى تحصن بدمياط دمرت ونهبت المدينة فى يوليو ١٨٠٣ من قبل تحالف بين المماليك والفرقة التى يقودها محمد على الذى حل محل طاهر باشا فى قيادتها، كما نهبت قوات خسرو مدينة فارسكور فى يونيو ١٨٠٣ قبلها كما نهبت سائر البلدان فى الوجه البحرى خلال عمليات المماليك ضد خسرو وضد على الجزايرلى الذى كان من المقرر أن يحل محل خسرو، لكنه قتل قبل ان يدخل القاهرة خلال تحالف بين محمد على والمماليك كما نهبت مدينة طنطا أيضاً فى تلك الفترة. الأمر الذى دفع أولاد الخادم الذين يقومون برعاية مسجد أحمد البدوى إلى الشكوى. وتسببت الاضطرابات فى تفاقم الأزمة المالية خاصة وأن فيضان ذلك العام (سبتمبر ١٨٠٣) جاء منخفضاً فاحتكر المماليك بيع الغلال للعامة بعد أن أصبحوا يستولون على الغلال الواردة للقاهرة وعندما احتج العلماء بترك القاهرة لدى إبراهيم بك فى ٢٧ أغسطس قال لهم وأنا معكم[٧]. ثم يقرر الجبرتى فى أول أكتوبر ١٨٠٣ أن المماليك أنزلوا فردة على أهل البلد وزعوها على التجار وأرباب الحرف فضج الناس وأغلقوا المحلات وطلبوا التخفيف، ويقول الجبرتى: واشتدت أزمة الغلال وارتفعت أسعارها وشح الخبز فى الأسواق، ويضيف: واستمر الوضع على ما هو عليه حتى نهاية شهر جمادى الآخرة (منتصف أكتوبر) وإذا حضرت مركب من قبلى أو بحرى بها غلال نهبها المماليك[٨] وقد استمرت هذه الأوضاع المتردية على الرغم من توسط المشايخ واحتجاجهم.

العامة وسقوط حكومة البرديسى:

استطاع المماليك الانفراد بالحكم بعد مقتل طاهر باشا وبدلاً من أن يدفع المماليك مرتبات الجند الأرناؤود حلفائهم أو على الأقل شطراً منها احتفظوا بتلك الأموال لأنفسهم، وعلى ذلك ففى ٨ سبتمبر هدد الأرناؤود بنهب القاهرة وحى الإفرنج بصفة خاصة بعد أن تأخرت مرتباتهم[٩].

وبالفعل شهد شهر يناير ١٨٠٤ أول اضطرابات واسعة النطاق قام بها الجند الأرناؤود ضد رؤسائهم بسبب تأخر رواتبهم حيث احتشد الجند أمام منازل رؤسائهم ومنهم محمد على وحبسوهم بها وأعلنوا عزمهم على ذبحهم إذا لم تدفع لهم مرتباتهم. كما حاصروا المنزل الذى يقيم به عثمان البرديسى الأمر الذى اضطر معه البرديسى إلى دفع جزء من مرتبات الجند وأن يدفع الباقى على أقساط خلال شهرين على أن يتنازل العسكر عن باقى المتأخر من رواتبهم، ورغم قبول قادة الجند بهذا الحل إلا أن الموقف ظل متأزمًا وأغلقت المحلات وأغلق الناس بيوتهم على أنفسهم واستمر التعدى على السكان، وتوقع الجميع نهب المدينة وتجدد تمرد الجند مرة أخرى عندما طلب البرديسى من الجند فى أواخر فبراير التحرك لمطاردة أتباع الألفى فى الفيوم إلا أن الجند قد عادوا وحاصروا منازل قادتهم وكان البرديسى - صدفة فى واحد منها. وهددوا بنهب القاهرة ما لم تدفع لهم مرتباتهم ونصح محمد على البرديسى بضرورة جمع المال اللازم لدفع مرتبات الجند. ومن ثم شرع البرديسى فى فرض إتاوات على التجار والرعايا المحليين والأجانب ولما لم تكف تلك القروض والمصادرات والمغارم لدفع مرتبات الجند اضطر البرديسى إلى عمل فردة على أهل البلد[١٠]. وشرعوا فى كتابة قوائم وزعوها على العقارات والأملاك بواقع أجرة سنة تدفع مناصفة بين الملاك والمستأجرين[١١] فثارت القاهرة. لقد أدت التراكمات التى أشرنا إليها إلى انفجار الموقف فى القاهرة نزل بالناس "ما لا يوصف من الكدر مع ما فيهم من الغلاء ووقف الحال". عندما شاهد الناس كتاب الفردة ومع كل جماعة شخص من الأجناد يطوفون الأخطاط يكتبون قوائم

الأمـلاك ويقـدرون الأجـر. فكثـرت الاحـتجـاجـات ورفض الفـقـراء والذيـن لديهم الجـرأة من الناس الدفع واشـتبك الأهـالـى مع عـمـال الفـردة فى مـنـاقـشـات حـادة واجـتـمـعت الجـمـاهيـر فى المـسـاجـد وخـرج الفـقـراء والعـامـة والنسـاء "طوائف يصرخون وبأيديهم دفوف يضربون عليها والنساء يندبن وينعين ويقلن كلاماً على البكوات مثل قـولهن "إيش تأخذ من تفليسـى يا برديسـى" وصبـغن أيديهن بـالنيلة وتحركت الجماهير إلى الأزهر يطلبون تدخل المشايخ لقد كان ذلك التحرك من العنف بحيث اضطر المماليك لإبطال الفردة فى ٨ مارس[١٢]. كانت ثورة مارس أول مواجهة على نطاق واسع بين فقراء المدينة ونظام ما بعد الحملة الفرنسية وكان لتلك المواجهة نتائجها الهامة فى أكثر من اتجاه:

● أخافت الثورة المماليك الذين أربكتهم المفاجأة بذلك لأن المماليك خلال صراعهم على السلطة مع أدوات النظام العثمانى لم ينتبهوا للدور المتزايد الذى لعبته الجماهير ضد الفرنسيين فى ثورة القاهرة الأولى وفى ثورة القاهرة الثانية ومـا يمكن أن تفعله تلك الجـمـاهيـر التى أرهـقـتـهـا الأزمـة المـاليـة والجـبـايات المـتـزايـدة وعبث الجند ومن ثم كـان تراجع سلطات البـرديسـى السـريع عن تلك الفردة.

● نبهت ثورة الجماهير محمد على إلى توجيه ضربة للمماليك مستفيداً من حالة الغضب التى تجتـاح المدينة. وفى نفس الوقت أدرك مـحـمـد على أن ثورة الغضب ضـد البـرديسى يمكن أن تمـتـد إلى الجند الذين عـانت الجـمـاهيـر من تعدياتهم كثيراً. ويرى البعض أن الجماهير كان فى إمكانها إلحاق خسائر كبيرة بالجند الذين كانوا وقتها منتشرين بين السكان وغير مستعدين للمواجهة، وهذا يفسر تحرك محمد على فى اتجاه التقرب من الناس والتقرب إلى المشايخ. وإن كان هناك دافع آخر فى هذا التصرف سوف نتعرض له بعد قليل.

● أن الثورة قد أخافت الجند أيضاً الذين كانوا منتشرين فى الأسواق فأعادوا تجـمـيع أنفسـهم وراحـوا يتوددون إلى العـامـة ويقـولون إن علوفتـهم (رواتب) على

الميري وأنهم فقراء مثل العامة[١٣].

وهناك نقطتان يمكن التوقف عندهما فى ثورة مارس ١٨٠٤ الأولى: أنها تمثل أول مشاركة عامة للنساء فى الأحداث العامة وبأعداد كبيرة فى تاريخ مصر الحديث حين خرجن يندبن وينعين وقد صبغن أيديهن باللون الأسود كنوع من الحداد كما كانت تفعل نساء الصعيد فى المآتم إلى وقت قريب. الثانية أن بعداً اجتماعياً واضحاً هو الذى حرك فقراء المدينة فى اتجاه الثورة وهو عجز الناس عن تحمل الأعباء المادية التى راح يفرضها المماليك، وكان ذلك واضحاً فى هتافات النساء بعد مناورة بتعيين خسرو الذى كان سجيناً فى القلعة ثم اختيار خورشيد الذى كان موجوداً فى الإسكندرية وفى أول مايو سنة ١٨٠٤ أقر الباب العالي تعيين أحمد خورشيد والياً على مصر ويقال إن اختيار خورشيد كان بناء على تفاهم سابق تم بينه وبين محمد على[١٤].

أزمة حكومة خورشيد:

واجه خورشيد من البداية عدداً من الصعوبات أهمها؛ استمرار مقاومة المماليك خارج القاهرة وتهديدهم لها فى بعض الأحيان ووجود الجند الألبان والأرناؤود تحت قيادة محمد على وحاجة خورشيد إليهم فى مواجهة المماليك وحاجة الوالى إلى الأموال لمواجهة مطالب أولئك الجند، وأخيراً محاولة محمد على السيطرة على حكومة خورشيد[١٥].

وفيما يتعلق باستمرار مقاومة المماليك فإن المماليك منذ طردهم من القاهرة عاثوا فى الأرض فساداً بعد أن تحالفوا مع البدو، وراحوا ينهبون ويخربون القرى، الأمر الذى أدى إلى ترك الفلاحين قراهم هرباً من ظلمهم حتى أقفرت قرى بأكملها ورحل عنها أهلها وباتت القاهرة نفسها مهددة بالمجاعة بعد أن صار المماليك يستولون على السفن التى تحمل المؤن إلى القاهرة[١٦].

وخلال شهر أبريل اشتبك المماليك مع قوات خورشيد فى معارك غير حاسمة حول القاهرة وفى مايو عاد المماليك لتضييق الحصار على القاهرة بعد

أن عادوا لتنظيم صفوفهم، فقطعوا المواصلات مع الصعيد ومنعوا المؤن عن القاهرة حتى عظم الكرب واشتدت المجاعة، وحاول خورشيد حشد حوالى ٨آلاف من الارناؤود للدفاع عن القاهرة.وفى ٤مايو نهب المماليك الوايلى وما جاوره من القرى، وهاجموا الدور وعروا النساء ونهبوا المحاصيل والغلال وخرج أهل تلك القرى هائمين على وجوههم وفر معظمهم إلى القاهرة. وفى نفس الفترة هاجم المماليك بلبيس ونهبوها، كما هاجموا قليوب ونهبوها وهرب كاشفها إلى بولاق وفى ٧مايو هرب أهل المطرية فرارًا من المماليك[١٧].

وفى ١٧مايو أحرز المماليك نصرًا غير حاسم على قوات خورشيد من الأرناؤود وقد قوى مركز المماليك انضمام جموع جديدة من العربان إليهم، ومن ثم كثرت غاراتهم على أطراف القاهرة[١٨]. وعلى هذا فقد كانت الأوضاع فى القاهرة خلال شهر مايو ١٨٠٤ بالغة القسوة، فالجنود يطالبون بمرتباتهم قبل الخروج لقتال المماليك. فى الوقت الذى كانت فيه الخزانة خاوية واختفت النقود من الأسواق وأصبح السكان الميسرون يغادرون القاهرة فرارًا من المجاعة وخوفًا من الاضطرابات وأعمال النهب، بل إن خورسيد نفسه قرر الإقامة فى القلعة لمواجهة أية أخطار محتملة[١٩].

وعندما حاول خورشيد دفع الخطر عن القاهرة بالخروج بنفسه ومعه المشايخ والرعية لقتال المماليك طلب الاجتماع بالمشايخ لأخذ رأيهم، لكن المشايخ رفضوا الخروج ومعهم الرعية بدعوى أن أكثرية الأهالى لا يدرون شيئًا عن فنون القتال. ويقول الجبرتى أن العلماء لم يستصوبوا رأى خورشيد وانفض المجلس على غير طائل[٢٠].

وكان المماليك قد عادوا إلى حصار القاهرة بعد أن توحدت قواتهم.غير أن محمدًا عليًا استطاع الانتصار على قوات المماليك فى ٢٣/٢٢يوليو عند قرية شلقان[٢١] وتشير المصادر الإنجليزية إلى أن الأوضاع فى القاهرة خلال شهر أغسطس كانت بالغة السوء، وأن حوادث القتل صارت تقع يوميًا فى فضلاً عن

نهب البيوت، وصار من الخطر أن يخرج الإنسان إلى الشارع، بل إن السكان باتوا لا يأمنون على أنفسهم داخل بيوتهم.

وفى شهر سبتمبر ساعد الفيضان إلى جانب هزيمة شلقان فى فك الحصار عن القاهرة، ومن ثم انتقلت قوات الوالي ومحمد علي من الدفاع إلى الهجوم فى مواجهة المماليك الذين انسحبوا إلى الصعيد حيث دارت معارك رئيسة حول مدينة المنيا وكان مما أفقد المماليك مصداقيتهم فى هذه المرحلة من الصراع استعانتهم بالبدو وتحالفهم معهم فى إرهاب القاهرة والريف بشكل عام، بل إن المماليك فى صراعهم مع قوات خورشيد ومحمد على لم يتورعوا عن الاستعانة باللصوص وقطاع الطرق، فقد حدث فى ليلة ٢مارس١٨٠٥ أن استعان البرديسى بزعيم عصابة من اللصوص فى الصعيد لإشعال النار فى أسطول محمد على المرابط فى المنيا خلال صراعه مع المماليك وكادت النيران أن تقضى على ذلك الأسطول لولا سرعة محمد على فى إنقاذ القوارب التى لم تصل إليها النيران[٢٢] وقد استمر صراع محمد على مع المماليك فى مصر الوسطى حتى جاءته الأخبار بوصول الدلاة إلى القاهرة فغادرها ليواجه الموقف فى القاهرة التى دخلها فى ١٩أبريل ١٨٠٥ .

وكانت المشكلة الأخرى التى واجهت خورشيد هى مشكلة الجند. وقد تداخلت مشكلة الجند الارناؤود وحاجة خورشيد إليهم مع مشكلة حاجة خورشيد إلى الأموال لسد مطالبهم، ثم محاولة محمد على السيطرة على حكومة خورشيد بحيث يمكن اعتبارهم مشكلة واحدة؛ ذلك أنه عندما تولى خورشيد السلطة ودخل القاهرة فى ٢٦مارس لم يكن لديه قوات خاصة يعتمد عليها فى مواجهة الأرناؤود كما كانت الخزانة خالية من الأموال، وكان خورشيد فى حاجة إلى أولئك الجند فى نضاله مع المماليك، وكان خروج الأرناؤود لقتال المماليك يتطلب دفع مرتباتهم. وكان دفع تلك المرتبات يتطلب فرض شتى الإتاوات على السكان المحليين والأجانب أيضًا.

وكـان الأهلون هـم الذين وقـع عليـهم عـبء تلك الاتاوات والـمغـارم، خـاصـة عندما رفض الجند السير لقتال المماليك؛ وعلى هذا فقد طلب خورشيد فى أبريل١٨٠٤ مال الميرى عن سنة مقبلة لدفع نفقة الجند وتحصيل ذلك من جميع المديريات[٢٣] شكا الملتزمون والفلاحون وتدخل بعض المشايخ فاستقر الأمر بعد ذلك على طلب نصف مال الميرى عن سنة١٢١٩هـ أى عن سنة مقبلة وبواقى سنة١٢١٧هـ، و١٢١٨هـ وباقى الحلوان على المفلسين، وكتبوا اتفاقًا بذلك وقالوا إن من لم يقدر على الدفع يعرض التزامه على المزاد[٢٤] وقد صور الجبرتى أوضاع مصر فى أوائل أبريل سنة١٨٠٤ بقوله "فتحواطلب الميرى من السنة المقبلة لضرورة النفقة فاغتم الملتزمون لذلك ليضيق الحال وتعطل الأسباب بقوله عدم الأمن وتوالى الفرد من البلاد ولو فضل للملتزم شئ لا يصل إليه إلا بغاية وركوب الضرر ووثوب الخلائق من العربان والفلاحين والأجناد والعساكر على بعضهم البعض من جميع النواحى القبلية والبحرية".

ويمضى الجبرتى فى تصوير الأوضاع خلال شهر مايو فيقول: "وفى أوائل مايو طلبوا جملة أكياس لنفقة العسكر فوزعوها على الأقباط والسيد أحمد المحروقى وتجار البهار ومياسير التجار وطلبوا أيضاً مال الجهات (فرضت ضريبة بعد الحملة الفرنسية)، وباقى مسميات المظالم عن سنة تاريخه معجلة. وفى ٢١ مايو طلب من وكيل الباشا سلفة من جماعة الوجاقلية (أرباب الحرف)، وطلبوا مبالغ من جماعة أخرى من الأعيان وعملوا على الأقباط ألف كيس وفردوا على البنادر مثل دمياط ورشيد وفوة ودمنهور والمنصورة مبالغ أكياس ما بين ثمانين كيساً ومائة وخمسين كيساً لنفقة العسكر[٢٥].. ثم فرض خورشيد على نساء المماليك إتاوات وأخذ من بقى منهن فى القاهرة رهائن. ثم استقدم فى النهاية نفيسة أرملة مراد بك إلى القلعة بدعوى أنها تسعى لاستمالة الجند رؤساء الأرناؤود لتأييد المماليك على أن تدفع لهم مرتباتهم المتاخرة فلما احتج العلماء على ذلك، ومنهم الشيخ الأمير الذى أعلن أنه لن يتدخل إذا ثار الأهالى المتذمرون ضد تصرفات الوالى عند ذلك تراجع الباشا عن موقفه وسمح

للسيدة نفيسة بالإقامة فى بيت الشيخ السادات.

وفى ٢٥ مايو ١٨٠٤ عاد خورشيد يطلب دفع مال الميرى سنة ١٢١٩هـ المعجل بالكامل، الأمر الذى جعل القاهرة تتململ ضد تصرفات حكومة خورشيد، فالجبرتى يذكر فى أحداث ٢٧ مايو ١٨٠٤ (١٦ المحرم ١٢١٩هـ). أرسل نائبه إلى أرباب الحرف والصنائع بطلب دراهم وزعت عليهم مجموعها خمسمائة كيس فضج الناس وتكدروا مع ما هم فيه من وقف الحال وغلاء الأسعار فى كل شىء وأصبحوا على ذلك يوم الأحد (١٧ محرم/ ٢٨ مايو) فلم يفتحوا الحوانيت وانتظروا ما يفعل بهم وحضر منهم طائفة إلى الجامع الأزهر ومرّ الأغا والوالي يناديان بالأمان وفتح الدكاكين فلم يفتح منهم إلا القليل.

وأصبح يوم الاثنين (١٨ محرم/ ٢٩ مايو) فأجمع الكثير من غوغاء العامة والأطفال بالجامع الأزهر ومعهم طبول وصعدوا إلى المنارات يصرخون ويطلبون وتحلقوا بمقصورة الجامع يدعون ويتضرعون ويقولون يا لطيف. وأغلقوا الأسواق والدكاكين ووصل الخبر إلى الباشا، بل سمعهم من القلعة فأرسل قاصداً إلى السيد عمر مكرم (النقيب) يقول إننا رفعنا (المطلوب) عن الفقراء فقال عمر مكرم لمندوب الباشا إن هؤلاء الناس من أرباب الحرف والصنائع وكلهم فقراء وكفاهم ما هم فيه من القحط والكساد ووقف الحال حتى تطلبوا منهم مغارم لجومك العسكر وما علاقتهم بذلك؟ فرجع الرسول بذلك. وحضر الأغا ومعه عدد من العسكر وجلس بالغورية وهو يأمر الناس بفتح الحوانيت ويتوعد من يتخلف فلم يحضر أحد ولم يسمعوا القول وفى وقت العصر رجع القاصد ومعه فرمان برفع الغرامة عن المذكورين ونادى المنادى بذلك فاطمأن الناس وتفرقوا وذهبوا إلى بيوتهم وخرج الأطفال يرمحون ويصرخون ويفرحون"![٢٦]..

لقد كان الهدف من تلك الإتاوات والغرامات التى أثارت أهالى القاهرة ومشايخها وأعيانها هو دفع مرتبات الجند المتأخرة لحملهم على الخروج لقتال المماليك[٢٧].

وعندما تمكن الجند من فك الحصار عن القاهرة خلال شهر أغسطس، كما سبق أن أشرنا، نشروا إرهاباً حقيقياً فى العاصمة تمثل فى الاعتداء على السكان وطنيين وأجانب، حيث صارت حوادث القتل تقع يومياً ولم يعد الأهالى يجدون الأمن حتى داخل بيوتهم. وبات خورشيد عاجزاً عن كبح جماح الأرناؤوط وكان سبب عجزه يرجع إلى انقسام الأرناؤود إلى فريقين؛ أحدهما بزعامة محمد على وهو يظهر الولاء لخورشيدوالفريق الآخر بزعامة حسن بك وعابدى بك وهو فريق يظهر الولاء لخورشيد والمماليك فى وقت واحد. وكان خورشيد يخشى اتحاد الفريق الأخير مع المماليك وكان هذا الخوف هو الذى دفع خورشيد إلى الصعود إلى القلعة والتحصن بها ابتداء من ١٨ مايو سنة ١٨٠٤ [٢٨] غير أن لجوء خورشيد إلى القلعة قد فتح الباب واسعاً أمام محمد على ليصبح صاحب السلطة والنفوذ الحقيقى فى القاهرة وكان مصدر نفوذ محمد على أنه استطاع فك الحصار عن القاهرة. أما سبب زيادة التفاف القاهريين حول محمد على فهو الإجراءات التى لجأ إليها خورشيد فى ٢٠ أغسطس بتوزيع فردة جديدة حُصلت من (أرباب الحرف) وتجار البن وخان الخليلى وأهل الغورية وغيرهم كقرض، وارتكب عمال الباشا فظائع كثيرة فى تحصيلها كما تسلط الجند على المتخلفين عن دفعها وحجز خورشيد قوافل البن الآتية من السويس وأعطى أصحابها بها سندات مؤجلة وأعطى الشحنة للجند يأخذوها من أصل علوفاتهم[٢٩].

كان عجز خورشيد عن كبح جماح الأرناؤود إحدى المشكلات الرئيسة التى تواجهه، وعلى هذا فإن خورشيد أخذ يلح على الباب العالى فى طلب نجدة من الدلاة فى مواجهة الأرناؤود وكان السلطان العثمانى بدوره قد أصبح قلقاً فى مواجهة الأرناؤود الذين رفضوا السفر إلى الحجاز لمواجهة الوهابيين أو العودة إلى أوطانهم، الأمر الذى جعل السلطان يتشكك فى ولائهم؛ ومن ثم استجاب الباب العالى لطلب خورشيد فى إرسال قوة من الدلاة[٣٠] إلى مصر ليوازن بها قوة الأرناؤود وحتى يتمكن فى النهاية من التخلص منهم وأرسل السلطان أوامره

لأولئك الدلاة بالتجمع فى غرب بلاد الشام وعندما تجمعت منهم قوة كافية اتجهوا إلى مصر دخلوا القاهرة فى ٢٩ فبراير ١٨٠٥. وقد أضاف وجود الدلاة تناقضاً جديداً إلى الموقف المتأزم فى القاهرة وخلق حالة من الفوضى لم تشهدها البلاد من قبل. فقد انطلق الدلاة فى منطقة مصر القديمة والقرى المجاورة لها فى وحشية يقتحمون المنازل ويغتصبون النساء ويخطفون الأطفال ويطردون السكان من منازلهم[٣١].

معسكر الثورة

وكان منطقيًا أن تؤدى كل تلك التراكمات إلى انفجار الموقف فى ثورة عامة ضد الجند وضد الوالى وضد كل مظاهر السلطة فى القاهرة. لقد كان معسكر الثورة يضم العلماء وكبار التجار والأعيان من الملاك فضلاً عن فقراء المدينة وأصحاب الحرف الذين أرهقتهم الجبايات ونهب الجند والتعدى على الأملاك، وأصبح هؤلاء خصوصاً كبار الملاك والتجار فى حاجة إلى نظام جديد كالذى أقامه على بك الكبير يؤمن الأرواح والممتلكات بعد سنوات من الغزو الفرنسى والحرب الأهلية وبعد أن ثبت للجميع عجز المماليك وقوى النظام العثمانى عن إقامة الأمن والنظام وربما يفسر ذلك تحالف القوى وخاصة التجار مع محمد على الذى رأوا فيه الرجل الذى يمكن أن يحقق الأمن والنظام وبعد أن انحاز إلى فقراء المدينة ضد حكومة البرديسى فى أحداث مارس ١٨٠٤ . فالتجار قد تخلوا عن تحالفهم القديم مع المماليك بعد أن ثبت لهم عجز المماليك عن إقامة الأمن والنظام وقد برزت أسماء من كبار التجار ضمن معسكر الثورة مثل المحروقى وجرجس الجوهرى وكان أحمد المحروقى قد لعب دوراً واضحاً فى ثورة القاهرة الثانية (مارس/ أبريل ١٨٠٠) ضد الفرنسيين وسوف يظل تحالف المحروقى وابنه محمد من بعده مع محمد على إلى ما بعد حملة الحجاز عام ١٨١١، والتى قدم فيها المحروقى دعماً واضحاً لمحمد على وكان محمد المحروقى فى عام ١٨١١ متشوقاً إلى إعادة خطوط الملاحة مع الحجاز عبر البحر الأحمر[٣٢] وكان العلماء شأنهم فى ذلك شأن كبار التجار من حائزى

الالتزامات كما كانوا من ملاك العقارات فى المدن؛ كما توضح دفاتر تعداد النفوس التى أعدت فى نهاية عصر محمد على. كما كان الكثير منهم يعملون بالتجارة وأنشطة اقتصادية متنوعة[٣٣]. وكان الابتزاز والقروض الإجبارية قد ألقت عليهم وعلى فقراء المدينة عبئاً ثقيلاً رأوا أملاكهم تتلاشى أمام أعينهم. ولم يعد العائد من الالتزامات مجدياً بسبب الاضطرابات التى تجتاح الريف كما توقفت الأرباح التجارية بسبب تعطل التجارة وغيبة الأمن[٣٤] وكان السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فى مقدمة العناصر الساخطة من العلماء والرافضة لتردى الأوضاع والراغبة فى وقف التجاوزات التى ترتكبها سلطات الحكم. وكان للسيد عمر مكرم وزنه لدوره فى الحياة العامة كما كان له قدرات متميزة فى تحريك الجماهير وحشدها وتنظيمها، وقد وضح ذلك الدور عندما بدأ الغزو الفرنسي وأخلى المماليك القاهرة؛ حيث قام عمر مكرم بتنظيم صناع القاهرة فى شكل حرس وطني للدفاع عن المدينة عندما أخلاها المماليك.

وعلى ذلك فقد كان على من يريد أن يكسب الجماهير أن يكسب عمر مكرم إلى صفه أو أن يكسب الشيخ السادات وكان الشيخ السادات بدوره رئيساً للطرق الصوفية وكان بإمكانه أن يستنفر كل رجل قادر فى المدينة للمشاركة فى القتال كما كان الشيخ البكرى أيضاً يتمتع بنفس الثقل فى المدينة. وكانت صداقتهما هدفاً سعى إليه محمد على، بينما كانا وهما يستنفدان آخر ثرواتهما يبحثان عن بديل لحالة الفوضى السائدة، وكان أمرًا لا مفر منه؛ أن يعمل القائد الطموح والأعيان المتضررون فى معسكر واحد[٣٥] وكان كبار العلماء قد لعبوا دوراً واضحا فى قيادة الجماهير ضد مظالم الحكم منذ نهاية القرن الثامن عشر وتأكد ذلك الدور خلال وجود الفرنسيين فى مصر[٣٦].

غير أن كبار العلماء وبحكم مصالحهم كان لديهم استعداد للانحياز للسلطة؛ إذا تجاوزت حركة الجماهير حدوداً معينة. وهذا الموقف يختلف عن موقف صغار العلماء الذين كانوا أكثر استعداداً للاستمرار فى صفوف الجماهير وهو الموقف الذى كان واضحاً فى قيادتهم لثورة القاهرة الأولى وكان السبب فى

إعدام عدد غير قليل منهم عندما تمكن بونابرت من إخماد الثورة[٣٧] وكان صغار العلماء بحكم موقعهم الاقتصادى والاجتماعى يشعرون أنهم وفقراء المدينة فى خندق واحد.

أما فقراء المدينة والمهمشون وأصحاب الحرف الدنيا أو العامة والذين كان الجبرتى ينظر إليهم باستعلاء شديد ويطلق عليهم مسميات عديدة تتسم فى مجملها بالتحقير فهم العامة والزعر والحشرات ومن لا دين لهم؛ فهؤلاء كانوا قاعدة التحرك ضد سلطات المماليك فى نهاية القرن الثامن عشر فى مواجهة كل انواع المظالم التى عانى منها السكان. كما كانوا أداة المقاومة ضد الغزو الفرنسى وبرز دورهم فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية[٣٨]. كما مثلوا قاعدة معركتهم الأساسية مع الجند وأن المواجهة مع الجند آتية لا محالة ومن ثم أخذوا يتسلحون ويقول الجبرتى: إن بعض الفقراء منهم قد باعوا ملابسهم ليشتروا السلاح. وعلى ذلك فقد شهدت المراحل الأولى من الثورة مواجهات شرسة بين العامة والجند فى معظم أنحاء القاهرة، وهى مواجهات استمرت إلى ما بعد وصول فرمان تولية محمد على فى ٩ يوليو، وكان العامة هم الذين رفضوا إلقاء السلاح عندما مال بعض العلماء للمهادنة كما سيأتى ولم تكن ثورة القاهرة هى المرة الأولى التى حمل فيها العامة السلاح، فقد لجأ العامة إلى حمل السلاح مع بداية الصراع بين خسرو والفرقة الألبانية فى عام ١٨٠٣ تخوفا من أعمال عنف مقبلة[٣٩] وقد برزت من بين العامة قيادات طبيعية لعبت دوراً واضحاً خلال حصار القلعة مثل حجاج الخضرى وابن بميه الجزار وإسماعيل جودة[٤٠].

أما محمد على فعلى الرغم من أن الأعيان كانوا يرون أنه القادر على إعادة النظام والخروج بالبلاد من الأزمة التى كانت تعيشها فإن القراءة المتأنية لأحداث تلك الفترة سوف توضح أن محمدًا عليًا بعد اختياره من قبل العلماء كان يواجه موقفًا بالغ الصعوبة لأسباب متعددة منها:

– أنه على الرغم من الضربات التى وجهها محمد على إلى المماليك فإن مقاومتهم كانت لا تزال مستمرة وكان من المتوقع أن يعودوا لمحاصرة القاهرة وكان فى إمكانهم لو توحدت قوتهم أن يلحقوا الهزيمة بمحمد على.

– كان فى إمكان المماليك أيضاً توحيد قوتهم مع قوات خورشيد المحاصر فى القلعة وسلحداره على باشا فى مصر القديمة؛ وهو احتمال ظل قائمًا حتى رحيل خورشيد عن القلعة فى ٦ أغسطس، وأن اتصالات من هذا النوع قد تمت فى النصف الثانى من يوليو حينما ضبطت سلطات القاهرة رسولا من المماليك يحمل خطة لضرب منزل محمد على من القلعة فى الوقت الذى تهاجم فيه قوات المماليك القاهرة وكان البرديسى طرفا فى تلك الخطة.

– أن الجند قد عادوا للمطالبة بمرتباتهم فى الوقت الذى انحازت فيه جماعة منهم مع رؤسائهم إلى خورشيد وتحريض أولئك الجند لأقرانهم بالتخلى عن محمد على والانضمام إلى معسكر خورشيد، وعلى ذلك فإن محمدًا عليًا مع بداية الأزمة لم يكن متأكداً من سلامة موقفه العسكرى بسبب صعوبة السيطرة على الأرناؤود الذين بقوا بالمدينة وكان بعضهم لا يزال متعاطفا مع خورشيد. كما أن الدلاة الذين تمركزوا فى قليوب كان بعضهم لا يزال فى القاهرة يروعون السكان[٤١].

– أن محمدًا عليًا كان قلقا من تسليح العامة المنخرطين فى الثورة والذين أصبحوا فى حالة اشتباك مستمرة مع الجند، الأمر الذى قد يؤدى إلى حالة من الفوضى يصعب السيطرة عليها، تظهره أمام السلطان العثمانى بمظهر العاجز عن حفظ النظام وهو لم يثبت بعد فى الولاية، لكن محمدًا عليًا لم يكن فى استطاعته أيضا وقف تسلح العامة[٤٢]. هذا الموقف يفسر الاتصالات المبكرة التى تمت مع معاونى خورشيد لإقناعه بقبول الأمر الواقع وترك القلعة، وهى اتصالات ومفاوضات استمرت إلى ما قبل ترك خورشيد للقلعة[٤٣]. لقد كان العامة أو الرعية هم الذين أحدثوا التغير الكيفى فى الموقف فقد كان من بينهم

٤٥ ألفاً يحملون السلاح منهم ١٥ ألف مسلحون بالبنادق. وكان العامة هم الذين سدوا الثغرة التى تخلفت عن ترك جنود محمد على لمواقعهم فى الحصار فى ٤ يونيو وهم الذين أحبطوا كل محاولات الاختراق من داخل القلعة وخارجها، وهم الذين تصدوا لمحاولة تهريب الذخيرة للقلعة فى ١٥ يونيو. كل ذلك كان يحدث بينما كان محمد على يتفاوض من أجل حل وسط يخدم مصالحه ومصالح خورشيد فى نفس الوقت حتى أواخر أيام خورشيد فى القلعة[٤٤].

الثورة والحصار:

بدأت أحداث الثورة عندما حضر سكان مصر القديمة نساء ورجالاً إلى الجامع الأزهر يستغيثون من الدلاة الذين أخرجوهم من ديارهم واحتفظوا بنسائهم ولم يعطوهم حتى فرصة لأخذ ملابسهم ومتاعهم[٤٥].

وقد صور الجبرتى أوضاع القاهرة مع بداية الثورة (١ صفر ١٢٢٠هـ أول مايو ١٨٠٥م) بقوله: "مصر اليوم مشحونة بأخلاط العسكر وأجناسهم داخل المدينة وخارجها، والدلاتية جهة مصر القديمة وقصر العينى ودير الطين يأكلون الزراعات ويخطفون ما يجدونه مع الفلاحين والمارين ويخطفون النساء ويلوطون فى الرجال الاختيارية (كبار السن) وحضر سكان مصر القديمة نساء ورجالا إلى الأزهر يشكون ويستغيثون من أفعال الدلاتية ويخبرون أن الدلاتية قد أخرجوهم من مساكنهم وأوطانهم قهراً عنهم ولم يتركوهم يأخذون ثيابتهم ومتاعهم ومنعوا النساء أيضا عنهم وما خلص منهم إلا من تسلق ونط من الحيطان[٤٦] هذه الحالة من التجاوزات دفعت مشايخ الأزهر إلى سرعة التحرك لمواجهة الموقف حيث التقى المشايخ بالباشا فى نفس اليوم وخاطبوه فى أمر تلك الأوضاع المتردية فأصدر الباشا أمره بخروج الدلاة، لكنهم لم يستجيبوا الأمر الذى جعل المشايخ يكررون طلبهم فأخبرهم الباشا بأن الجند سوف يرحلون عن القاهرة بعد ثلاثة أيام. مما أدى إلى زيادة التجمع والضجيج. وعلى ذلك فقد اجتمع المشايخ بالأزهر وتركوا الدروس وخرجت جماعات من الأولاد يصرخون

بالأسواق ويأمرون بغلق الحوانيت وحصل بالبلد ضجة ووصل الخبر إلى الباشا الذى أرسل نائبه إلى الأزهر فلم يجد به أحد فذهب إلى بيت الشيخ الشرقاوى وحضر إليهم السيد عمر مكرم وبعض العلماء وتكلموا معه فى الأوضاع التى كانت قائمة وعند انصراف نائب الباشا رجمه الأطفال بالحجارة وسبوه وشتموه حسب رواية الجبرتى(٤٧).

وحتى يوم العاشر من مايو كان الموقف لا يزال متأزما والقاهرة فى شبه عصيان مدنى فعلماء الأزهر ممتنعون عن إعطاء دروسهم فى الأزهر والمحلات مغلقة. وخلال يومى العاشر والحادى عشر من مايو وقعت ثلاثة أحداث أدت إلى انفجار الموقف فى القاهرة

الأول: وصول فرمان بتعيين محمد على باشا واليا على جدة وكان الهدف من ذلك إبعاده عن مسرح العمليات وتخلصا من تطلعاته إلى السلطة فى مصر.

الثانى: أن خورشيد قد طلب من محمد المحروقى وجرجس الجوهرى وكلاهما من كبار التجار سلفة قدرها ٢٠٠٠ كيسة، كما أشيع بأن خورشيد ينوى فرض ضرائب على العقارات على أساس القوائم التى كان الفرنسيون قد أعدوها من قبل.

الثالث: أن الدلاة حال خروجهم من القاهرة قد نهبوا قرية قليوب نهبا تاما وأخذوا نساءها وأطفالها وباعوهم فى الأسواق. وعندما حاولوا نهب قرية أبو الغيط المجاورة تصدى لهم أهلها ودخلوا معهم فى معركة قتل خلالها مائة من الفلاحين.

فى تلك الظروف نادت سلطات القاهرة بالأمان عند ذلك انفجر بركان الغضب حين انطلقت الجماهير تتساءل "ماذا حدث حتى يكون هناك أمان وهو (خورشيد) يريد سلب الفقراء وأخذ أجر مساكنهم ويعمل عليهم غرامات وباتوا فى هرج ومرج" حسب رواية الجبرتى. وفى اليوم التالى (١٢ مايو) تصاعد الموقف حيث ركب المشايخ ومعهم أعداد كبيرة من العامة والأطفال وهم

يصرخون مطالبين بتطبيق شرع الله بينهم وبين الباشا الظالم ويرددون هتافات منها "يا رب يا متجلى اهلك العثمانلى". وطلبوا من القاضى حضور كبار المسئولين إلى مجلس الشرع وعندما حضر هؤلاء ومنهم الدفتردار تم الاتفاق على تحرير عرضحال يتضمن عدة مطالب ذكر الجبرتى منها:

- وقف المظالم التى يتعرض لها الناس بكافة أنواعها.
- إخراج الجند من الأماكن التى احتلوها.
- وقف مصادرة أموال الناس بناء على دعاوى كاذبة، وهى دعاوى كان يقدمها بعض الجند ضد بعد المياسير ليحصلوا من ورائها على أموال كنوع من الابتزاز.
- وقف تحصيل أموال الميرى مقدماً[٤٨].

وتضيف المصادر الفرنسية مطالب أخرى لم ترد عند الجبرتى وهى:

- عدم إقامة أى قوة من الجند من الأرناؤود أو غيرهم داخل مدينة القاهرة وأن ينتقل الجند الموجودين بالقاهرة إلى الجيزة.
- عدم السماح للجند بدخول القاهرة بسلاحهم على أن يستثنى من ذلك قوات الأمن والشرطة.
- قفل الحانات وأماكن اللهو الخاصة بالجند إلى جزيرة الروضة.
- عدم فرض أى إتاوات جديدة على السكان.
- إعادة المواصلات مع الصعيد.

هذا إلى جانب شروط أخرى تتعلق بإعادة الأمن إلى القاهرة وتأمين قافلة الحج. ومع نهاية الاجتماع طلب المسئولون الذين حضروا مهلة لليوم التالى لعرض تلك المطالب على الباشا، لكن الباشا أرسل فى نفس الليلة بما يفيد بقبوله لتلك المطالب وطلب حضور القاضى والعلماء للتشاور معهم لبحث الأوضاع العامة، لكن العلماء لم يستجيبوا لطلب الباشا بعد أن شعروا بوجود مؤامرة للتخلص منهم، وعلى ذلك فقد قرر العلماء عقد اجتماع فى اليوم التالى (١٣ مايو) فى بيت القاضى وهو الاجتماع الذى تقرر فيه عزل خورشيد واختيار

محمد على واليا على مصر بدلاً منه.

ثم قام العلماء بإبلاغ محمد على بذلك القرار ويقول الجبرتى: "إن محمد على قد تمنع ثم قبل الولاية بشروط العلماء التى أشرنا إليها والتى كان خورشيد قد رفضها، ثم قام السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى فألبسا محمد على كركا وعليه قفطان وكان ذلك فى وقت العصر ونادوا بذلك فى المدينة فى تلك الليلة.

وعندما تم إبلاغ خورشيد بذلك فى اليوم التالى أجاب بقوله "إننى مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ولا أنزل من القلعة إلا بأمر السلطنة[٤٩]" وأخذ يستعد للمقاومة عند ذلك رأى محمد على والعلماء قبل الدخول فى صدام مع الوالى أن يكتبوا إلى عمر بك وصالح أغا وهما من زعماء الأرناؤود الذين انحازوا إلى خورشيد يذكرونهما بما اجتمع عليه رأى الناس من عزل الباشا وأنه لا ينبغى مخالفتهم وعنادهم لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب الإقليم فكان ردهما أنه ليس هناك سند شرعى على ما اتخذه العلماء والعامة من قرارات، عند ذلك اجتمع العلماء فى بيت القاضى وأصدروا فتوى شرعية بعزل الباشا وقع عليها القاضى والمفتون وذلك فى ١٦ مايو ومن ثم طالب العلماء الوالى بترك القلعة وعندما اجاب معاونى الباشا بأن إقامته بالقلعة ليس فيها ضرر على الرعية رد القاضى: بأن إقامة الباشا فى القلعة هى عين الضرر وأن قرار نزول الباشا من القلعة قد اتخذه أربعون ألفا من الرعية ومن ثم أنذر العلماء خورشيد بأن تلك آخر المراسلات بينهم[٥٠].

وفى تلك الفترة أرسل الألفى الذى اقتربت قواته من الجيزة إلى السيد عمر مكرم ومحمد على والشيخ الشرقاوى يطلب تحديد مكان ليستقر فيه فكان ردهما أن يستقر فى المكان الذى يراه لحين انتهاء الفتنة.

ويشير شكرى إلى أن محمد على قد بذل جهداً آخر لإقناع خورشيد بالنزول من القلعة دون حاجة لاستخدام القوة، لكن الوالى وضع شروطا لذلك منها عدم مطالبته بتقديم أي حسابات عن الأموال التى جمعها، لكن العلماء رفضوا ذلك

الشرط وأصروا على محاسبته على الأموال التى جمعها[٥١] على الرغم من أن محمدًا عليًا كان مستعدا لقبول ذلك الشرط أما باقى الشروط فكانت تأمين سلامة خورشيد بعد تركه القلعة ووضع السفن والمؤن اللازمة لنقله للأسكندرية[٥٢] كان الهدف من تلك المفاوضات التى كان وراءها محمد على هو اعتراف خورشيد بالأمر الواقع الجديدوالتزام الحياد حتى يأتى قرار الباب العالى فيما اتخذه العلماء والرعية من قرارات. لقد كان تقدير محمد على للموقف مع بداية الأزمة- كما سبق أن أشرنا- على النحو التالى: أن مقاومة المماليك لا تزال قائمة وأنه من المتوقع أن يحاولوا محاصرة القاهرة مرة أخرى وأن الجند عادوا للمطالبة بمرتباتهم فى الوقت الذى انحازت فيه مجموعات منهم مع رؤسائهم إلى خورشيد.

إن العامة قد أخذوا فى التسلح فى مواجهة تعديات الجند عليهم بتحريض من زملائهم الذين انحازوا إلى خورشيد وكان محمد على يدرك أن استمرار تسلح الشعب قد يخلق حالة من الفوضى يصعب السيطرة عليها، الأمر الذى يظهره أمام الباب العالى بمظهر العاجز عن ضبط النظام فى الوقت الذى لم يكن فيه محمد على قد حصل على اعتراف بولايته[٥٣].

ومن ثم كان حرص محمد على على نجاح تلك المفاوضات - كما سبق أن أشرنا - ومع فشل جهود الوساطة وإصرار خورشيد على موقفه برزت فكرة حصار القلعة؛ حيث يشير الجبرتى إلى أن السيد عمر مكرم أخذ بعدها يحرض الناس على التجمع والاستعداد وتحديد الأدوار وتوزيع المسئوليات، ومن ثم شرعوا فى حصار القلعة ابتداء من يوم ١٩ مايو ومنعوا الصعود إليها أو النزول منها وعندما حاولت وحدات من جند القلعة اختبار قوة الحصار وذلك فى يوم ٢٤ مايو ردت على أعقابها عقب مناوشات وقعت بين الجانبين[٥٤]. غير أنه فى اليوم التالى جرت محاولة أخرى لحل الأزمة سلميا دارت حول شرعية قرار العلماء بعزل الوالى وحصار القلعة وضرورة طاعة ولى الأمر. ويقال إن الهدف منها كان الوصول إلى حل يراعى مصالح خورشيد ومحمد على فى نفس

الوقت[٥٥] بينما كان الدافع إليها من قبل سلطات القلعة كسب الوقت والحصول على المؤن والعتاد. وخلال تلك المفاوضات حاول المتحدثون عن خورشيد التأكيد على أن عزل الوالى من قبل الرعية مسألة لا تتفق مع مبادئ الشرع الشريف معتمدين فى ذلك على قوله تعالى "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم" لكن عمر مكرم أجاب على ذلك بقوله: إن المقصود بأولى الأمر فى الآية الكريمة هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل. وأنه جرى العرف على خلع الوالى وحتى السلطان إذا سار فى الناس بظلم. وعندما اعترض مندوب الباشا (عمر بك) على فكرة حصار القلعة وجندها من المسلمين أجاب عمر مكرم: بأنهم عصاة وقد أفتى العلماء والقاضى بجواز قتالهم. عند ذلك قال مندوب الباشا إن القاضى كافر فكان رد عمر مكرم أنه إذا كان قاضيكم كافر فكيف بكم[٥٦] وقد استغرقه ذلك الحوار ثلاث أيام (٢٥-٢٨مايو) أصبح الحوار بعدها أكثر فاعلية حيث تم وضع عدد من المدافع فوق جبل المقطم فى مواجهة القلعة كما تم وضع نظام لإعاشة الجماهير المشتركة فى الحصار والتى أخذت تلعب دورًا متزايدًا فى الثورة ضد خورشيد، فالجبرتى يذكر فى أحداث الخميس ٣٠ مايو أن الأمر مستمر على ذلك من تجمع الناس وسهرهم باليل فى سائر الأخطاط"[٥٧].

ساعد على ذلك نظام طوائف الحرف وارتباطه بالطرق الصوفية وهو شكل من أشكال تنظيمات المجتمع المدنى كانت لها قواعدها وقيادتها وخطوط اتصالها مما جعلها جاهزة للعمل وسرعة الحركة وقد ظهرت فاعلية تلك التنظيمات فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية ضد الفرنسيين[٥٨]. كما ساعد على ذلك الدور القيادى الذى لعبه السيد عمر مكرم فى تعبئة جماهير المدينة وحشدها وإيجاد نوع من التنظيم جعلته أكثر تأثيرًا ونفوذًا على العامة وفقراء المدينة من سائر المشايخ واستطاع العامة وفقراء المدينة تحت قيادته القيام بمهام حفظ الأمن ودفع اعتداءات الجند والانتقام لأنفسهم من الأرناؤود وإحكام الحصار حول القلعة ومنع الجند المحاصرين من مغادرتها. وتقول نفس

المصادر: إن السكان كانوا يقومون بأعمال الحراسة ليلا كما كان يحدث فى باريس زمن الحملة الفرنسية ويقيمون المتاريس فى الشوارع. وتقدر تلك المصادر عدد السكان المسلحين بأربعين ألفاً كانوا يتلقون اوامرهم من عمر مكرم الذى أصبح زعيم القاهرة بأسرها[٥٩].

معارك الحصار:

استمر حصار القلعة خلال الفترة من ١٩مايو إلى ما بعد وصول فرمان تولية محمد على فى ٩يوليو شهدت بعضها معارك ضارية واشتباكات بالمدفعية كانت أولها تلك المحاولة التى أشرنا إليها فى ٢٤مايو عندما حاولت عناصر من جند القلعة اقتحام المتاريس جهة الرميلة لكن تم إحباطها بعد اشتباكات استمرت لمدة ساعات وضح خلالها تعاطف بعض عناصر الأرناؤود خارج القلعة مع إخوانهم المحاصرين داخل القلعة كما يفهم من تعليق الجبرتى على تلك المحاولة[٦٠] وهو ما أكدته أحداث الفترة التالية عندما حاولت عناصر من الجند الموجودين من خارج القلعة فى ٦يونيو احتلال بعض المواقع حول القلعة وبعد أن أطلقوا النار على عناصر الحصار المقيمين بالمتاريس من الجند والرعية وتمكنوا من إجلائهم عن مواقعهم واحتلوها .لكن أهل الرملية بقيادة حجاج الحضرى وإسماعيل جودة تمكنوا من القضاء على تلك المحاولة بعد أن قتلوا أعدادًا من القائمين بها وفر الباقون وعندما انحاز من بقى منهم إلى إحدى الوكالات وأغلقوها عليهم حضر ذو الفقار كتخدا وساعدهم على الهرب بعد أن دافع عنهم[٦١] وفى نفس الوقت حاول خورشيد الاستعانة بالدلاة المتمركزين فى قليوب وأرسل يطلب منهم الحضور لنجدته لأن الفلاحين يحاصرونه ويمنعون عنه الطعام والشراب لكن الدلاة أرسلوا تلك الرسالة إلى محمد على الذى سلمها فى ٨ يونيو إلى السيد عمر مكرم.

إن صعوبة تلك الفترة تكمن فى أن بعض العناصر الموالية لخورشيد ومنهم سلحداره على باشا، أصبحت تعمل على استمالة عناصر الأرناؤود بالانضمام إلى

خورشيد وتأييد قضيته وبالفعل انضم إليه الكثيرون منهم بعد أن وعدهم بزيادة مرتباتهم. كما أخذ يعمل على دعم المحاصرين فى القلعة وتهريب الطعام والذخيرة إليهم عبر باب صغير تم فتحه فى القلعة جهة عرب اليسار[٦٢].

وكانت قوات محمد على من رجال المدفعية المتمركزه فى ميدان الرميلة قد تمردت وتركت مواقعها بسبب مرتباتهم المتأخرة وذلك فى ٤يونيو، لكن جماعات من الأهالى قد سارعوا فى سد الثغرة التى نتجت عن انسحاب قوات محمد على[٦٣].

وفى ١٥يونيو حاول خورشيد تدبير مكيدة بالاشتراك مع على السلحدار يتم خلالها تهريب قافلة كبيرة من الذخيرة ووضع حد لمقاومة الأهالى وإجلائهم عن متاريسهم، وتقوم تلك المكيدة على أن يقوم بعض رجال السلحدار بطلب إفساح الطريق لهم بدعوى التوسط لإنهاء الأزمة بين سلطات القلعة وبين السيد عمر مكرم، وعندما يبدأ اختراق الحصار من جهة الصليبة تقوم مدفعية القلعة، بضرب مناطق الحصار ومناطق من المدينة بحيث تفزع العامة وتتخلى عن مواقعها حول القلعة لكن السيد عمر مكرم قد علم بتلك المكيدة فى الوقت المناسب وتم إحباطها حين هاجم حجاج الحضرى وأهل الرميلة القافلة واستولوا على الجمال التى تحمل الذخيرة وعددها ستون جملا وقتلوا عددًا من القوة المصاحبة للقافلة وأسروا آخرين[٦٤].

وقد أعقب فشل تلك المحاولة ضرب مدفعي مكثف من القلعة بيت محمد على ومنطقة الأزهر تهدمت بسببه بعض البيوت ورحل عنها أهلها، لكن الناس لم تتزعج من ضرب المدفعية بعد أن تطعموا ضد الحرب زمن الفرنسيين كما يفهم من تعليق الجبرتى على أحداث تلك الأيام. وقد استخدمت مدفعية القلعة لضرب المدينة بشكل متقطع حتى عصر الجمعة ٢١يونيو[٦٥].

لكن أكبر المعارك التى حصلت خلال حصار القلعة كانت تلك التى حدثت يوم الجمعة ٢٨يونيو؛ عندما وردت أخبار بوصول قابجى (حامل رسالة أو رسول)

فضربت صواريخ ابتهاجا بوصوله، فظن المحاصرون فى القلعة أن صداما قد وقع بين الأهالى والجند فى المدينة وكذلك على باشا السلحدار فى مصر القديمة الذى زحف بقواته لمهاجمة القوات المتمركزة حول القلعة ونزلت قوات من القلعة لتعزيز قوات على السلحدار واستطاعوا احتلال بعض المواقع جهة عرب اليسار، لكن أهل الرميلة بقيادة حجاج الحضرى اشتبكوا معهم فى معركة ضارية شاركت فيها مدفعية محمد على. وقد أسفرت المعركة عن هزيمة خورشيد وأعوانه وقد أشرف على المعركة السيد عمر مكرم[٦٦].

كذلك فقد استطاعت جماهير القاهرة المتمركزة حول القلعة إحباط العديد من محاولات التسلل من القلعة عبر الحصار عن طريق استخدام سلالم من الحبال أو غيرها لأخذ الماء أو الغذاء. والتى كانت تقوم بها أعداد محدودة من الجند أو الأفراد كما حدث يوم الجمعة ٢١يونيو عندما نزل جماعة من الجند يقدر عددهم بعشرين فردا على سلالم من الحبال للحصول على بعض الطعام والشراب فتصدى لهم الناس واستردوا منهم ما حصلوا عليه من الدقيق وقرب الماء، وكما حدث أيضًا يوم ٢٣ يونيو عندما نزل ستة أشخاص يريدون الحصول على الماء من صهريج فى منطقة الحطابة فضرب عليهم أفراد الحصار فعادوا من حيث أتوا كما يقول الجبرتى[٦٧].

الاشتباكات بين العامة والجند:

ويفهم مما كتبه الجبرتى عن أحداث تلك الفترة أن القاهرة أصبحت مسرحا لأعمال عنف فى معظم أحيائها بين العامة والجند فقد حدث اشتباك بين الجند والعامة يوم ٢٥ بعد أن قتل ثلاثة من العسكر غلامًا بعد أن طاردوه، الأمر الذى أدى إلى اشتباك بين العامة وأولئك العسكر وطاردوهم حتى تمكن العامة من قتلهم بعد أن فرغت ذخيرتهم[٦٨] وفى ٨ يونية قتل العسكر بعض الأفراد وتمكن العامة فى المقابل من القبض على بعض أفراد من العسكر وقتلوهم كما تعرض بيت السيد عمر مكرم فى نفس التاريخ لمحاولة اقتحام فتصدى لهم الحراس

الواقفون على باب المنزل فهرب بعضهم وتمكن الحرس من حجز البعض الآخر، الأمر الذى جعل المحتسب، يعلن أمرا صدر عن السيد عمر مكرم لجميع الرعايا بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم وأن يحترسوا فى أماكنهم وأخطاطهم وإذا تعرض لهم عسكرى بأذى قابلوه بمثله وإلا فلا يتعرضوا له[٦٩] كما صدر أمر من محمد على إلى الجند حول نفس المعنى ورغم ذلك فقد حدثت فى اليوم التالى اشتباكات بين الجند والعامة فى أكثر من موقع حيث وقع تعدى من بعض الجند فى باب زويلة والعطارين فخرجت عليهم طائفة من المغاربة والعامة وحاصروهم وقبضوا على عشرة منهم وأخذوهم إلى السيد محمد المحروقى الذى دفع عنهم العامة وبعد أن قتل عدد منهم فى منطقة الرميلة وفى نفس الليلة وقعت معركة بين الجند والأهالى وكان أهالى الرميلة فى فترة سابقة قد أسروا بعض الجند وأخذوا سلاحهم؛ ومن ثم جرت محاولة من زملائهم لتخليصهم وحدثت معركة هزم فيها الجند وتراجعوا بعد أن خلفوا عددا من القتلى[٧٠].

لقد استمرت الاشتباكات بين العامة والجند إلى ما بعد وصول فرمان تولية محمد على. كان أعنفها تلك الاشتباكات التى وقعت فى منطقة مرجوش والتى قتل فيها عدد من الأفراد من الفريقين. وكذلك تلك التى وقعت فى منطقة طبلون بين حجاج الخضرى والعسكر وراح ضحيتها عدد من الأشخاص[٧١] وفى يوم ١٤يوليو قتل الجند عددًا من الأشخاص فى جهات متفرقة من القاهرة وضج الناس وأغلقوا الدكاكين مما دعا إلى المناداة بعودة الناس لحمل السلاح وفى يوم ٢٢يوليو وقعت معركة بين العسكر المقيمين ببولاق وأهلها قتل فيها عدة أفراد بعد أن انتصر أهل بولاق على العسكر[٧٢] لقد كان من نتيجة اتساع نطاق تلك الاشتباكات بين الجند والعامة ضعف الحصار حول القلعة، مما أدى إلى طول مدة الحصار بحيث بات من الممكن تهريب الماء والغذاء والذخيرة إلى المحاصرين فى القلعة الأمر الذى جعل محمد على يصدر أمرا بإعدام أى جندى يتعرض لأحد من الرعية[٧٣].

وصل قرار عزل خورشيد إلى القاهرة صباح يوم ٩ يوليو وأعلن على الناس

فى نفس اليوم وجاء به أنه سارى المفعول من تاريخ ٢٠ربيع أول (١٨يونيو) حيث رضى بذلك العلماء والرعية[٧٤]، وعلى الرغم من توقف إطلاق النار حول القلعة إلا أن الحصار قد استمر ذلك لأن خورشيد لم يغادر القلعة إلا فى ٦ أغسطس وبعد أن وصله تحذير من الباب العالى فى ٢٣ يوليو، وقد احتفلت القاهرة بوصول فرمان عزل خورشيد احتفالاً كبيرًا شارك فيه أهالى مصر القديمة وباب الشعرية والحسينية والعطوف وخط الخليفة والقرافتين، والرميلة، والحطابة، والحباله وكتخدا محمد على وقادة الجند الأرناؤوط وكان يقود هذا الاحتفال الجماهيرى الحاشد حجاج الحضرى وابن شجعه شيخ الجزارين وطافوا بالمدينة وهو يطلقون المدافع والبنادق والقرابين ومعهم طبول ومزامير[٧٥].

وعلى الرغم من توقف إطلاق النار بين القلعة وعناصر الحصار فقد استمر القلق والتوتر لأن خورشيد لم يغادر القلعة إلا فى ٦ أغسطس وبعد أن وصله تحذير من الباب العالى فى ٢٣ يوليو يحمله مندوب فوق العادة من السلطان.

وقد شهدت القاهرة فى اليومين التاليين لوصول الفرمان اشتبكات دامية بين العامة والجند فى مناطق متعددة منها باب اللوق ومصر القديمة ومرجوش والخرنفش بسبب مشاجرة وقعت بين بائع خردة وأحد الجند كما كانت منطقة طبلون مسرحا لأعمال عنف يوم ١١يوليو بين حجاج الحضرى والجند قتل فيها عدد من الأفراد.

وبيدو أن استمرار أعمال العنف قد جعل معظم المشايخ يميلون إلى المهادنة وتهدئة الأوضاع ومنهم الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير ومعظم المتعممين الذين اجتمعوا وناقشوا الوضع واستنكروا تورطهم فيه (المقصود ثورة العامة) واتفقوا أن يبتعدوا عن الفتنة وأن ينادى بالأمان وأن يفتح الناس حوانيتهم وأن تستأنف الدراسة فى الأزهر وذلك يوم ١١يوليو ولم يكتفوا بهذا، بل ذهبوا إلى محمد على وقالوا له أنت حاكم البلدة والرعية ليس لها مقارشة (تدخل) فى عزل الباشا ونزوله من القلعة وقد أتاك الأمر فنفذ كيف شئت وكان ذلك الموقف من العلماء يعنى تفويضا كاملا لمحمد على بالتصرف فى الأزمة كما ترى ووقف مصالحه

وليس كما ترى الجماهير التى كانت تطمح فى تحجيم سلطة الحكم[٧٦] ويقول الجبرتى(١١يوليو) وركب الاغا وصحبته بعض المتعممين ونادوا فى المدينة بالأمن والأمان والبيع والشراء وأن يتركوا حمل الأسلحة بالنهار وإذا وقع من بعض العسكر قباحة رفعوا أمره إلى محمد على وإن كان من الرعية رفعوا أمره إلى السيد عمر مكرم "وهو اتجاه لم يلق قبولا من العامة؛ حيث يقول الجبرتى فلما سمع الناس ذلك أنكروه وقالوا إيش هذا الكلام حينئذ نصير طعمة للعسكر بالنهار وغفراء بالليل والله لن تترك أسلحتنا ولا نمتثل لهذا الكلام" وكان منطقيا بعد هذا الموقف من العلماء أن يشرع محمد على فى نزع سلاح العامة حيث يقرر الجبرتى أن الاغا قد مر ببعض المتسلحين فقبض عليهم وأخذ سلاحهم فازدادوا قهرًا وباتوا على ذلك وعندما اجتمعوا بالسيد عمر مكرم أخبرهم بأن هذا الأمر على غير مراده[٧٧] وقد تكرر النداء يوم الجمعة ١٢يوليو بأن يفتح التجار حوانيتهم وأن يحتفظوا بأسلحتهم خوفا من غدر العسكر، ويقول الجبرتى فى أحداث يوم السبت ١٣يوليو فتح الناس بعض الحوانيت ونزل المشايخ إلى الجامع الأزهر وقرأوا بعض الدروس ففترت همم الناس وأخذوا يسبون المشايخ لتحديهم إياهم وشمخ عليهم العسكر وتعرضوا وأضرارهم "وعندما عاد العسكر للعدوان على الناس نودى من جديد بالعودة لحمل السلاح وذلك فى ١٤يوليو[٧٨] لقد استمر التوتر والاشتباكات بين الجند والعامة حتى نزول خورشيد من القلعة فى ٦إغسطس. عندما كتب الجبرتى يقول" "واطمأن الناس بعض الاطمئنان وأرسل السيد عمر مكرم بطلب من الناس استمرار الحذر وضبط الجهات لأن القوم لا أمان لهم"[٧٩].

ويلاحظ أن تراجع العلماء عن معسكر الثورة الذين أزعجهم عنف تحركات العامة قد فتح الطريق أمام محمد على لتصفية الثورة ومطاردة قادتهابدءًا بالسيد عمر مكرم الذى نفاه محمد على خارج القاهرة عام ١٨٠٩ وانتهاء بحجاج الخضرى الذى جرى شنقه بواسطة المحتسب فى إحدى ليالى رمضان (فى أغسطس عام ١٨١٧).

والدارس لانتفاضات المدن خلال الفترة من أواخر القرن الثامن عشر وحتى هزيمة الحملة الأنجليزية ١٨٠٧ يستطيع أن يخرج بالحقائق الآتية:

أولا: أن ما يمكن أن نسميه بالطبقة الوسطى وقيادتها من كبار العلماء كانت تستأثر بقيادة تحركات العامة وفقراء المدينة وفى نفس الوقت كانت تخاف من عنف تحركاتهم، يفهم ذلك من تعليق الجبرتى على أحداث ثورة القاهرة الأولى ضد الفرنسيين حيث يقول: وخرج العامة عن الحد وبالغوا فى القضية بالعكس والضد وذلك عندما هاجم فقراء المدينة الأملاك الخاصة[٨٠] نفس الشئ حدث فى ثورة القاهرة عام ١٨٠٥ عندما قرر العلماء الابتعاد عما أسموه فتنة وانحازوا إلى السلطة وأعطوا محمد على تفويضًا بالتصرف فى الأزمة كما يرى، لقد كانت تلك الفئات تستفيد من تحركات العامة لكنها تخاف من عنف تلك التحركات فتعمل على احتوائها.

ثانيا: أن قدرا من الوعى قد تمتع به فقراء المدينة خلال تلك الفترة يتضح ذلك من مهاجمة الجماهير لمشايخ الأزهر خلال ثورة القاهرة ضد الفرنسيين حيث ضرب العامة الشيخ الشرقاوى والشيخ السرى واتهموهما بخذلان المسلمين وأخذ دراهم من الفرنسيين عندما مالوا للمهادنة يفهم ذلك أيضا من رفض العامة التخلى عن سلاحهم بعد صدور قرار تولية محمد على كما سبق أن أشرنا.

ثالثا: التحام فقراء المدينة بالحياة السياسية من ذلك مثلا أنه عندما خرج المماليك لملاقاة جيش بونابرت فى الثالث من صفر ١٢١٣هـ (يوليو١٧٩٨) وخرج الناس ليلحقوا بجيش المماليك قاموا بنصب خيام للإقامة فيها ورتبوا من يصرف عليهم من دراهمهم". وهو ما يؤكده أيضًا الدور الذى لعبه العامة فى ثورة القاهرة ١٨٠٥ حيث لم تسجل يوميات الجبرتى ما يفيد أن العامة قد اعتدوا على المحلات أو الأملاك الخاصة[٨١].

وفى النهاية هناك قضيتان جديرتان بالمناقشة فيما يتعلق بثورة ١٨٠٥ .

الأولى: أن المماليك والجند سبق لهم تنحيه الولاة وقتلهم أحيانًا فما الجديد فى مسألة عزل والى وتولية غيره؟ والقضية هنا تختلف اختلافًا كاملا. فعمليات عزل الولاة التى سبقت ثورة القاهرة لم تكن للرعية أى دور فيها، أما هذه المرة فالذين قاموا بعزل الوالى هم المصريون (الرعية) معهم العلماء، فى مواجهة السلطة على كافة مستوياتها بدءًا من الجند بما فى ذلك جند محمد على وانتهاء بالوالى الذى تم عزله، وقد سبق أن أشرنا إلى صعوبة موقف محمد على مع بداية الأزمة وكان العامة وفقراء المدينة بقيادة عمر مكرم هم الذين أحدثوا التحولات فى الموقف حتى رحل خورشيد عن البلاد، والملفت للنظر أن محمد على لم يتوقف طوال فترة الثورة عن التفاوض مع سلطات خورشيد على إمكانية الوصول إلى حلول وسط. وكان العلماء والجناح المتقدم منهم يريدون أن يحكم محمد على بمقتضى الشروط التى وافق عليها فى ١٣مايو سنه ١٨٠٥ بالتشاور معهم وأن يتم عزله إذا ما حاد عن الطريق وبمقتضى تلك الشروط فإن العلماء أقاموا من أنفسهم سلطة تعلو على سلطة الوالى باعتبارهم الأوصياء المعنويين على المصلحة العامة ومطبقى الشريعة وحماتها، وكانوا فى ذلك يحاولون العودة إلى الممارسات الإسلامية الأولى من الناحية النظرية، وكانوا فى ذلك يحاولون أيضا الحد من سلطة الوالى الجديد. أما صياغتهم لملتمسهم إلى الباب العالى فقد ورد به استعمال كلمات إرادة الشعب وكانت تلك إشارة واضحة إلى أنهم لن يساوموا على شروطهم وأنهم يعنون ما يقولون وكان ذلك أيضا يعنى أن الشعب مؤيدا بصوت العلماء إنما هو صوت الله(٨٢).

ويرى محمد فؤاد شكرى أن الحوار الذى تم بين العلماء وعلى رأسهم عمر مكرم ومعانو الباشا فى مايو والأحداث التى تلت ذلك حتى رحيل خورشيد عن القاهرة قد أقرت مبادئ هامة فى الفكر السياسى المصرى فى عزل الحكام إذا ساءوا الحكم واستخدام السلطة وساروا فى الرعية بالجور، وبعبارة أخرى تأكيد مبدأ استقرار السيادة العليا فى الشعب نفسه(٨٣).

أما القضية الأخرى المثارة فى هذه الخاتمة فهى إشكالية كانت ولاتزال

تحتاج إلى نقاش مستفيض وهى لماذا لم يقرر العلماء والعامة اختيار عمر مكرم واليا على مصر؟

والاجابة تاتى اجتهادًا على النحو التالى: إن عمر مكرم لم يتمكن رغم تزايد سلطته أن يحول السلطة إلى أيدى الفئات المصرية المتمثلة فى العلماء والأعيان والتجار، فقد كان السلاح فى أيدى سادة الأمس من المماليك والترك والدلاة والأرناؤود، وعلى الرغم من أن هؤلاء منقسمين على أنفسهم وكان من المتوقع أن يتوحد كل هؤلاء إذا ما طالب المصريون (الفلاحون) بالسلطة لواحد منهم[٨٤].

ثانيا: أن مصر أصبحت ساحة معركة تتصارع فيها القوى فى فجر القرن التاسع عشر وكانت انجلترا تقف وراء المماليك وتساندهم، وترى أنهم الأجدر بحكم مصر والقادرين عن الدفاع عنها فى مواجهة الأطماع الفرنسية.

ثالثا: أن جبهة الثورة لم تكن موحدة فكبار التجار كانوا أكثر من غيرهم خوفا من عنف تحركات العامة وانهيار النظام العام كما أشرنا فى بداية الدراسة وكانوا يرون أن محمد على وحده هو القادر على إعادة النظام وهذا يفسر التحالف الاستراتيجى غير المعلن الذى تم بين أحمد المحروقى أكبر تجار القاهرة وابنه محمد من بعده مع محمد على وهو تحالف قد استمر إلى ما بعد الحملة على الحجاز التى كان المحروقى أحد المتحمسين لها كما سبق أن أشرت[٨٥].

إما جبهة العلماء فقد كان الواضح من البداية أنها غير موحدة ، فالجبرتى يذكر أنه عندما حضر نائب الوالى خورشيد للتشاور مع العلماء فى بداية الأزمة وذلك يوم ١٢مايو لم يجد منهم أحدا بالأزهر ويقول الجبرتى: "وكان المشايخ قد انتقلوا بعد الظهر إلى بيوتهم لأغراض نفسانية وفشل مستمرفيهم،فذهب إلى بيت الشيخ الشرقاوى وحضر هناك السيد عمر أفندى وخلافه فكلموه وأوهموه[٨٦] ثم كان الانشقاق الواضح فى جبهة العلماء عندما أجمع الشيخ الشرقاوى والشيخ الأمير ومعظم المتعممين واتفقوا على أنهم يتباعدون عن الفتنة وينادون بالأمان ولم يكتف المشايخ بذلك، بل ذهبوا إلى محمد على

وأعطوه تفويضًا بالتصرف فى الموقف، ويرى البعض أن المشايخ بتصرفهم هذا قد اقترفوا خطأ كبيرًا فى هذه الفترة التى لم يكن فيها محمد على قد تمكن من السلطة(٨٧).

ثم هناك رؤية الجبرتى وهو من العلماء لأحداث الثورة وطبيعتها حيث يقول: "واختطلت القضية واشتبه أمرها على أهل البلد فلا يعرف كلا الفريقين الصاحب من العدو فتارة يتشابك العسكر مع أهل البلد وكذلك أهل البلد معهم وتارة تتشابك فرقة منهم مع الكائنين بالقلعة وتارة الفريقان يساعد بعضهم بعضا وإذا وقع اشتباك بين الكائنين بنواحى الرميلة مع العسكر فرح من بالقلعة وأغروا أولاد البلد بهم ومنهم من يغرى، أولاد البلد بهم (يقصد العسكر) ومنهم من يغرى العسكر على أولاد البلد ويقولون لهم بلسانهم وبالعربى أضربوا الفلاحين ونحو ذلك وبالجملة فهى قضية مشكلة بين أوباش مختلفة وطباع معوجة منحرفة(٨٨).

ثم هناك الدولة العثمانية التى كانت تحاول أن تعيد سيادتها كاملة على مصر فهل كانت توافق على تولية مصرى حاكما على مصر وإذا لم توافق هل كان المصريون يستطيعون خوض حرب تحرير طويلة المدى ضد دولة الخلافة كما فعلت اليونان بعد ذلك، ومن كان سيقف معها فى تلك الحرب علما بأن اختيار محمد على بواسطة الرعية ظل يفتقر إلى الشرعية حتى جرى الاعتراف بولايته من الباب العالى.

مع ملاحظة أن مصر لم تشهد واليا عربيا واحدًا خلال فترة خضوعها للحكم العثمانى باستثناء أحمد باشا الجزايرلى الذى يقال إنه من أصل جزائرى كذلك فإنه لم يصل عربى واحد إلى وظيفة الصدر الأعظم طول فترة الحكم العثمانى، بينما كانت الغالبية العظمى من الصدور العظام من البلقان والمفروض أن البلقان كانت أكثر غربة من العرب بالنسبة لدولة الخلافة. فهل كان من الممكن بعد هذا اختيار عمر مكرم واليا على مصر؟ إشكالية لاتزال تحتاج إلى نقاش.

الهوامش

(١) حول فترة الفوضى السياسية يمكن الرجوع إلى محمد فؤاد شكري، مصر فى مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١-١٨١١ مطبعة جامعة القاهرة، جـ١، ١٩٥٨ .

(٢) حول صراع القوى خلال تلك الفترة يمكن مراجعة السيد رجب حراز، المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال البريطاني ١٥١٧- ١٨٨٢، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٥٧-١٧٢، وأيضا عبد الوهاب أحمد، تاريخ الغرب الحديث ١٧٩٨- ١٩٢٠، دار القلم، دبى ١٩٩٧، ١٤٦، ١٤٧ .

(٣) كانت عفاف لطفي السيد أكثر توفيقاً في استخدام تعبير الأعيان بدلا من الحديث عن قيادات للطبقة الوسطى الذي استخدمه محمد أنيس وهو يتحدث عن قيادات جماهير القاهرة في تلك الفترة.
عفاف لطفي السيد، مصر في عصر محمد علي، ترجمة عبد السميع عمر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤، ص٨١ .
أيضا: محمد أنيس والسيد رجب حزار، التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث، القاهرة، بدون، ص ٨٧ .

(٤) حول نتائج الحملة الفرنسية من هذا المنظور انظر:
السيد رجب حراز، المرجع السابق، ص١٥٢ .
أيضا عبد الوهاب أحمد، المرجع السابق، ص١٤٣ .

(٥) حول ضرائب الأرض في صعيد مصر زمن الحملة الفرنسية انظر: على بركات القرية في صعيد مصر في مواجهة الغزو الفرنسي منشور ضمن أعمال ندوة مركز دراسات المستقبل بجامعة أسيوط، أبريل ١٩٩٦ .

(٦) محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص ٢٠٤- ٢٣٣ أيضا عفاف لطفي السيد، المرجع السابق، ص ٧٢،٧١ .

(٧) عجائب الآثار، جـ٢، ص ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٣ .

(٨) المرجع السابق، ص ٢٦٥ .

(٩) محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص ٢٠٥، ٢٠٧، يعتبر هذا الكتاب هو أفضل من تناول أحداث القاهرة في هذه الفترة على الرغم من أنه غير موثق.

(١٠) المرجع السابق، ص ٢٤١ .

(١١) عجائب الآثار، جـ٣، ص٢٨٣ .

(١٢) عالج أحداث ثورة مارس أكثر من مصدر.
حراز، المرجع السابق، ص١٧٣ .
عبد الرحمن الرافعي، تاريخ مصر القومي، مكتبة النهضة المصرية، جـ٣، القاهرة ١٩٥٨، ص ٣٢٠ .

(١٣) محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص ٢٤٢، أيضا عجائب الآثار، جـ٣، ص٢٨٣ .
(١٤) مارس خورشيد سلطاته كوالي في ٢٦ مارس ١٨٠٤ .
(١٥) حراز، المرجع السابق، ص ١٧٥، ١٧٦ .
(١٦) شكري، المرجع السابق، ص٢٧ .
(١٧) عجائب الآثار، جـ٣، ص٢٩٣ .
(١٨) شكري، المرجع السابق، ص ٢٧٧، ٢٧٨ .
(١٩) المرجع السابق، ص٢٧٩ .
(٢٠) عجائب الآثار، جـ٣، ص ٢٩٨ .
(٢١) نفسه، ص ٣٠٦ .
(٢٢) نفسه، ص ٢٨٤ .
(٢٣) نفسه، ص ٢٨٨ .
(٢٤) نفسه، ص ٢٨٨، والحلوان هو المبلغ الذي كان يدفع مقدما عن الالتزام.
(٢٥) نفسه، ص ٢٩٥، ٢٩٦ .
(٢٦) نفسه، ص ٢٩٧، عن دور علماء الأزهر خلال تلك الفترة انظر دور الأزهر في السياسة للدكتور سعيد إسماعيل كتاب الهلال عدد نوفمبر ١٩٨٦، ص ١٢٠، ١٢١ .
(٢٧) شكري، المرجع السابق، ص ٢٧٣ .
(٢٨) نفسه، ص ٢٨٤ .
(٢٩) نفسه، ص ٢٨٦، عجائب الآثار جـ٣، ص٣٠٩، ٣١٠ .
(٣٠) الدلاة والدلاتين كلمة مأخوذة من كلمة Deliberالتركية وتعي والكلمة هنا تعني البواسل إشياه راجع المجامين وهم فرق من الفرسان كنت توضح في مقدمة الجيش العثماني، أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩، ص١٠٤ .
(٣١) حراز، المرجع السابق، ص ١٧٧ .
(٣٢) عفاف لطفي السيد، المرجع السابق، ص ٨١، ١٢٣ .
(٣٣) انظر على سبيل المثال، دفتر تعداد تمن بولاق، دار الوثائق ٣٢/٨٤/١، جـ١ تمن بولاق، ص ١٩٢، ١٩٣ .
(٣٤) عفاف لطفي السيد، المرجع السابق، ص٨١ .
(٣٥) المرجع السابق، ص ٨٢ .
(٣٦) عن دور العلماء في قيادة الجماهير انظر:
حكمت أبو زيد، المجتمع القاهري على عهد الحملة الفرنسية كما صوره الجبرتي، ضمن عبد الرحمن الجبرتي دراسات وبحوث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٦، ص٣٤٨-٣٥٠ .

(٣٧) عجائب الآثار، جـ٣، ص ٦١ .
(٣٨) حكمت أبو زيد، المرجع السابق، ص ٣٥٤ .
(٣٩) عفاف لطفي السيد، المرجع السابق، ص ٧٣، ٨٥ .
(٤٠) قدم محمود الشرقاوي ترجمة لبعض هذه القيادات في الجبرتي وكفاح الشعب، كتاب الهلال، عدد ٧ يوليو ١٩٦٦، ص ١٤٣-١٤٧ .
(٤١) شكري، المرجع السابق، ص ٣٢٠، ٣٢٤ .
(٤٢) نفسه، ص ٣١٦، ٣٢٦ .
(٤٣) نفسه، ص ٣٢٤ .
(٤٤) عجائب الآثار، جـ٣، ٣٣٢، ٣٣٣ .
(٤٥) جـ١، المرجع السابق، ص ١٧٧ .
(٤٦) عجائب الآثار، جـ٣، ص ٣٢٨ .
(٤٧) نفسه، ص ٣٢٨، ولليسة تساوي ٢٠ ألف بارة (١١) عجائب الآثار، جـ٣، ص, ٣٢٩ أشار الجبرتي في موضوع آخر إلى تلك الدعاوى جـ٣، ص ٣١٠ .
(٤٨) نفسه، ص ٣٣٠، ذكرت أحداث ذلك اليوم في مصادر كثيرة.
(٤٩) نفسه، ص ٣٣٠، ٣٣١ .
(٥٠) نفسه.
(٥١) كانت القاعدة أن يقدم الباشا ذلك الحساب الذي كان يعرف بالمابين الحسابي إلى الباشا الجديد أما أن يقدم إلى العلماء فكانت هذه قلة في اتجاه حق نواب الشعب في مناقشة الميزانية.
(٥٢) محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص ٣٢٠ .
(٥٣) نفسه، ص ٣١٦ .
(٥٤) عجائب الآثار، جـ٣، ص ٣٣٠-٣٣١ .
(٥٥) شكري، المرجع السابق، ص ٣١٩ .
(٥٦) عجائب الآثار، جـ٣، ص ٣٣١ .
(٥٧) نفسه، ص ٣٣٢ .
(٥٨) محمد أنيس، والسيد رجب حراز، التطور السياسي للمجتمع المصري الحديث، بدون، ص٤٧ .
(٥٩) محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص ٣١٩ .
(٦٠) عجائب الآثار، جـ٣، ص٣٣١ .
(٦١) نفسه، ص ٣٣٢ .
(٦٢) نفسه، ص ٣٣٣، أيضا شكري المرجع السابق، ص ٣٢٢ .
(٦٣) عجائب الآثار، جـ ٣، ص ٣٣٢ .

(٦٤) محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص ٣٢٢ .
(٦٥) عجائب الآثار، جـ ٣، ص ٣٣٣، ٣٣٤ .
(٦٦) محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص ٣٢٣ .
أورد الجبرتي تفاصيل تلك المعركة: عجائب الآثار، جـ٣، ص٣٣٥ .
(٦٧) عجائب الآثار، جـ٣، ص ٣٣٤ .
(٦٨) نفسه، ص ٣٣١ .
(٦٩) نفسه، ص ٣٣٢ .
(٧٠) نفسه، ص ٣٣٣ .
(٧١) نفسه، ص ٣٣٦، ٣٣٧ .
(٧٢) نفسه، ص٣٣٨ .
(٧٣) محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص ٣٢٢ .
(٧٤) عجائب الآثار، جـ٣، ص٣٣٦ .
(٧٥) وصف الجبرتي الاحتفال باستفاضة، عجائب الآثار، جـ٣، ص٣٣٦ .
(٧٦) عالج محمد جابر الأنصاري هذه الجزئية حول موقف العلماء في مقال تحت عنوان معالم الخلفية الاجتماعية لحركة النهضة العربية، المجلة العربة للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت المجلد الثامن ١٩٨٨، ص ٢١، ٢٢ .
(٧٧) عجائب الآثار، جـ٣، ص٣٣٧ .
(٧٨) نفسه، ص٣٣٨ .
(٧٩) نفسه، ص ٣٤٠ .
(٨٠) نفسه، ص ٢٥ .
(٨١) راجع في هذه الجزئية: على بركات، رؤية الجبرتي لبعض قضايا معاصرة، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص ٤٧- ٤٩ .
(٨٢) عفاف لطفي السيد، المرجع السابق، ص ٨٥ .
(٨٣) محمد فؤاد شكري، المرجع السابق، ص ٣٢٠ .
(٨٤) أنور عبد الملك، نهضة مصر ١٨٠٥- ١٨٩٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٣، ص٢٥٣، ٢٥٤ .
(٨٥) عفاف لطفي السيد، المرجع السابق، ص ٨١، ١٢٣، ١٢٤ .
(٨٦) عجائب الآثار، جـ٣، ص٢٢٨ .
(٨٧) محمد جابر الأنصاري، المرجع السابق، ص ٢٢ .
(٨٨) عجائب الآثار، جـ٣، ص٣٣٣ .